سجـــلماسة
من المدينة إلى القصور

د. لحسن تاوشيخت

أستاذ التعليم العالي

رئيس قطب تدبير المجموعات وخدمة العموم

المكتبة الوطنية – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرًا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع، فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار "مديني" تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط "بدوي" يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما "نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة [للهجرة الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي] من الطاعون الجارف الذي...ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها... وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن" (المقدمة، ١٩٧٨). بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضًا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونًا وطابعًا خاصًا. أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلاً عن كونها شكلت مركزًا حضريًا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة "القصور".

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٥ يونيو ٢٠١٤

تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أغسطس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الحكم المريني، تافيلالت، القصور المخزنية، قصور وقصبات، الطابية والطوبية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

لحسن تاوشيخت. "سجلماسة من المدينة إلى القصور".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص٥٣ – ٦٣.

مُقَدِّمَة

شُيدت مدينة سجلماسة سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) من طرف خوارج مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكو بن واسول، وعرفت نموًا كبيرًا خلال الثلاثة قرون الموالية. اتخذت في البداية شكل عاصمة دولة، فتوفرت على المرافق الضرورية لذلك مثل دار الإمارة، والمسجد الجامع في الوسط، والسوق بالقرب من المركز، والدور السكنية، والمرافق العمومية، والمعامل الحرفية، والحمامات العمومية، والحدائق... وفي فترة الإمارة المستقلة في سجلماسة، كانت المدينة تتحكم في العلاقات بين ضفتي الصحراء، وكان من نتائج ذلك أن ازدهرت المدينة ونشأت بها دور لسك العملة الذهبية، وفي المقابل جلبت لها هذه الحظوة أطماع كل القوى السياسية قبل أن يسيطر عليها المرابطون سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٤م).

مع السيطرة المرابطية تحولت سجلماسة إلى عاصمة إقليم لدولة شاسعة، واندمجت في شبكة اقتصادية وسياسية أكبر، وشهدت تغييرات متناقضة من حاكم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. وكان من نتائج كل هذه السياسات المختلفة، أن فقدت سجلماسة الكثير من بريقها، بل وأصبحت وضعيتها السياسية غامضة في نهاية العصر المريني، إذ شهدت العديد من الصراعات انتهت بتخريبها وتفرق سكانها في القصور والقصبات.

أولاً: عوامل تحول مدينة سجلماسة إلى قصور وقصبات

ظلت مدينة سجلماسة تابعة رمزيًا على الأقل للحكم المركزي المريني بفاس، لكن وضعها بدأ في التدهور الفعلي منذ فترة حكم أبي الحسن خلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، قبل أن تندثر نهائيًا في عهد أبي العباس أحمد مع نهاية هذا القرن [حوالي سنة 802 – 795هـ/ ١٣٩٣ – ١٤٠٠م] بعد أن عانت من الثورات والتمردات بين حكامها وبين هؤلاء وسلاطين بني مرين، فتشتت سكانها في قصبات خاصة بهم بالضواحي. ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أن المرينيين عهدوا بحكم إقليم سجلماسة إلى "أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءهم .وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر، والبعض الآخر خاضع للأعراب".[١] وتبقى العوامل غير المباشرة لهذا الاندثار جد مترابطة ويمكن تلخيصها في أربعة أساسية هي:

- **العامل الأول**، يتمثل في هيمنة القبائل العربية وما سببته من قلاقل، مما أثر بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للمدينة. فضعفت المحاصيل الزراعية، وتوقف سك العملة، وتحولت مسالك تجارة القوافل إلى جهة أخرى..." وعمت فوضى كثيرة البلد خلال فترة استقرار وهيمنة القبائل العربية. في الوقت نفسه تدهورت التجارة الصحراوية، وضعفت سجلماسة، المدينة المحورية للواحات وانتهى بها المطاف إلى الاندثار".[٢]
- **العامل الثاني**، يتعلق بتحول مسالك التجارة الصحراوية نحو موانئ المحيط الأطلسي مع ظهور البرتغاليين بهذه الشواطئ ونحو المناطق التي كانت أكثر أمنًا مثل تلمسان وإفريقية ودرعة. هذا التحول حال دون استفادة المدينة من موارد رئيسة التي بفضلها نشأت أول الأمر، وعرفت أوجها اقتصاديًا وسياسيًا في عدة فترات.
- **العامل الثالث**، يرتبط بسياسة سلاطين بني مرين أنفسهم وخاصةً منهم أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن تجاه سكان سجلماسة، حيث قاموا بمحاصرة المدينة بقوة ولمدد طويلة، بل ودخلوها عنوة، وكان لذلك تأثيرًا سلبيًا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب الاستقصا "أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها، واشتغل بتغوير ماء العين.[٣] التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها".[٤] من جهته، يذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط [المحرم ٧٣١ هـ/ ١٣٣١م إلى ٧٥١ هـ/ ١٣٥١م] حارب "سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ "عين تيمدرين "القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال".[٥] هذا فضلاً عن فرض ضرائب ثقيلة وغير شرعية والتي قام ابن مرزوق بتفصيل أنواعها في كتابه المسند الصحيح(٦) وكان لهذه السياسة فعلها السلبي خاصةً في وقت الأزمات المتتالية التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بسبب تعاقب سنوات الجفاف والمجاعة.

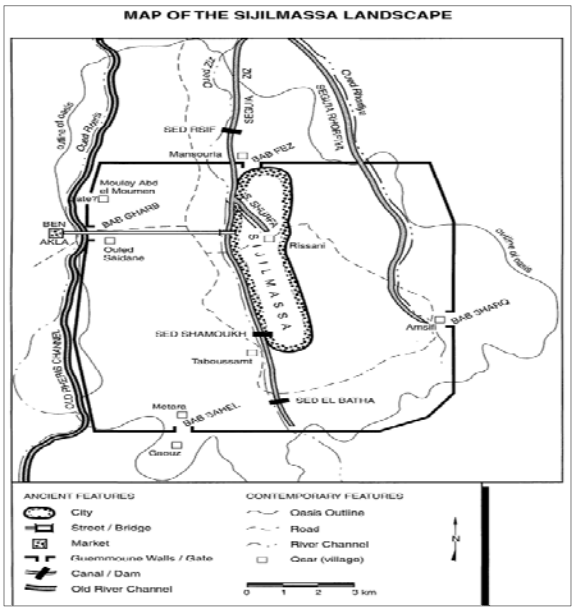

- **العامل الرابع**، يرتبط بالظروف المناخية القاسية من الجفاف والأوبئة. وقد ترك لنا ابن خلدون صورة سوداوية للطاعون الذي عم المغرب خلال منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حيث قال: "وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هدمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وقل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها".[٧] وذكر الناصري من جهته نقلا عن ابن قنفذ أن سنة (٧٧٦هـ/

١٣٧٥م): "كانت سنة مجاعة في المغرب، وعم على إثرها الخراب، حيث انتشر الخوف والجوع."[٨] وفي موضع آخر يصف المؤرخ نفسه مخلفات الطاعون الأسود على المغرب بما فيه سجلماسة "حيث انتقص العمران على الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل."[٩]

وبذلك عرفت سجلماسة فترة من عدم الاستقرار ووصلت بها الأوضاع الداخلية حدًا لا يطاق "وهكذا ومع موت السلطان أبي العباس (أحمد المنتصر) سنة ١٣٩٣م، ثار إقليم سجلماسة، فقتل السكان حاكم المدينة وحطموا سورها"[١٠] ويعتقد أن المدينة عرفت مرحلتين من التخريب أولها: "أن يكون ذلك قد حدث في أواخر القرن (٨ هـ/ ١٤م) بعد ثورة أهاليها سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) وتهديمهم للسور الخارجي لها ثم انتقالهم إلى السكن في القصور الكبرى المحصنة حسب رواية الوزان وثانيها: أن تكون ثورة الأهالي هذه بداية لأعمال تخريب متوالية أتت على إندراس المعالم المعمارية للمدينة بالتدريج طيلة النصف الأول من القرن (٩ هـ/ ١٥م)"،[١١] وبذلك تكون مدينة سجلماسة قد وصلت إلى نهايتها المحتومة، حيث هدمت عن آخرها.. فالتجأ سكانها إلى الضواحي فبنوا لهم قصورًا خاصة بهم.

من وجهة الرواية الشفوية، فهي تتذكر أسطورتين مختلفتين عن اندثار سجلماسة: تقول الأولى إن السلطان الأكحل "الأسود" ويقصد به ربما حاكم المدينة، ذهب يتجول في إحدى الليالي، فالتقى امرأة خرجت رفقة أبنائها قصد غسل بعض الملابس. فطلب منها السلطان أن تربط معه علاقة غير شرعية، فلما رفضت قام بتصفية ابنا لها، إذ قسمه بسيفه إلى شطرين وقدمه لكلابه. هذا الفعل الشنيع لم يستسغه السجلماسيون فنددوا به وقاموا بالثورة أدت إلى نشوب الحرب التي قتل على إثرها الحاكم، وكان من نتائجها تدمير المدينة.

الأسطورة الثانية تشير إلى أن سكان المدينة استيقظوا فجر ذات يوم على مؤذن المسجد الجامع وهو يصيح بعد أذان الصبح "أصبح ولله وخلت" بدلا من "أصبح ولله الحمد"، ويمكن أن نستشف من وراء ذلك أن المدينة ربما تعرضت في ليلة هذا اليوم لكارثة طبيعية تتمثل على الأرجح في زلزال قوي، أو فيضان جارف. ذلك أن التوضعات النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبًا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبًا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر، فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصةً وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول "اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن (١٤ الميلادي/ ٨ للهجرة)، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة."[١٢] ويبقى تأكيد أحد العوامل المؤدية إلى الاندثار السريع والمفاجئ لمدينة سجلماسة، مرهونًا بنتائج الحفريات الأثرية في غياب أي مصدر مكتوب يمكن الاعتماد عليه.

ثانيًا: انتقال الإشعاع الحضاري من سجلماسة إلى القصور

رغم اندثار مدينة سجلماسة؛ فإن أنشطتها الاقتصادية ودورها التاريخي (السياسي) لم يتوقفا، بل انتقلا إلى أهم القصور الكبيرة، يمكن ذكر ثلاث رئيسية منها: "أولها يسمى تانجيوت وعدد سكانه نحو ألف كانون وبه بعض الصناع. والثاني يسمى تابوعصامت وهو أكبر منه وأكثر حضارة وفيه عدد كبير من التجار الأجانب، واليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من بقية الإقليم. والقصر الثالث يسمى المأمون وهو أيضًا كبير حصين كثير السكان خصوصًا منهم التجار اليهود والمسلمين."[١٣] فقصر تابوعصامت الذي لا زال صامدًا من الممكن أنه شيد بين سنتي (٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م)، و(٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م) في جنوب المدينة الأم والذي كان بمثابة المركز التجاري والحرفي ودارًا لضرب العملة إلى غاية (القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي). بينما اندثر القصران الآخران، المأمون وتانجيوت ولم يبق لهما أثر، ويطلق اسم "تانجيوت" على مقاطعة أو مشيخة بكاملها والواقعة في شمال شرق تافيلالت ومن قصورها مزكيدة، أولاد يوسف والقصر الفوقاني. "كان لكل من تانيجيوت وتابوعصامت والمامون في (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) أمير يدير شؤون القصر ويعمل على حمايته من غارات الأعراب. واستقر بهذه القصور الحرفيون والتجار المسلمون واليهود كما كان بكل منها دار سكة تضرب بها مثاقل خفيفة من الذهب الرديء ونقود من الفضة."[١٤]

من جهة أخرى؛ وابتداءً من (القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) بدأ اسم سجلماسة الذي يعني المدينة، ينمحي من النصوص التاريخية واستبدل في بعض المرات باسم إقليم سجلماسة قبل أن يعوض نهائيًا باسم تافيلالت. وهنا يمكن طرح التساؤل التالي: هل اندثرت المدينة بكاملها أم أنها احتفظت ببعض معالمها ولو على شكل قصور كما هو الشأن بالنسبة لقصر الريصاني الذي يرجعه البعض اعتمادًا على بعض البقايا الأثرية، إلى العصر المريني؟

كما يمكن القول؛ إن موقع سجلماسة لم يظل يبابا منذ تاريخ هدم المدينة في أواخر (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، بل بنيت فوق بعض أجزائه قصورًا وأنشئت في أجزاء أخرى منه مراكز حرفية كما هو الحال بالنسبة للصنائع الخزفية التي تم العثور على الكثير من بقاياها. ويبقى مع ذلك أن أغلبية السكان ربما استقروا في قصور خاصة بهم بنوها في الضواحي.

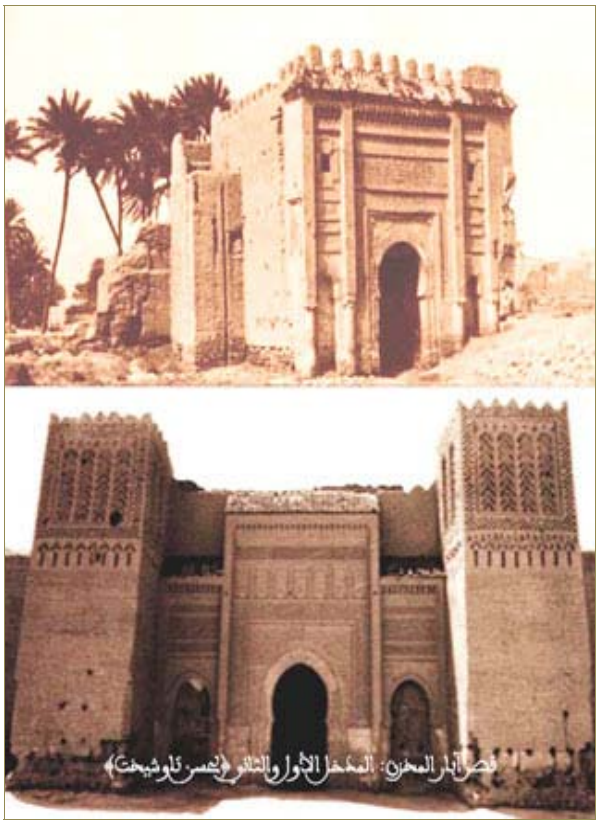
قصر آبار المخزن: المدخل الأول والثاني (حسن تاوشيخت)

إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرًا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع؛ فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار "مديني" تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط "قروي" يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما "نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة (القرن الرابع عشر الميلادي) من الطاعون الجارف الذي... ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها... وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن".[١٥]

بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضًا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونًا وطابعًا خاصًا. أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلاً عن كونها شكلت مركزًا حضريًا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة. وفي هذا الصدد يشير أبو حامد الأندلسي إلى "أن سجلماسة كانت محاطة بمساكن محصنة".[١٦]

وحول أصل هذا النمط المعماري، يذكر ابن خلدون "أن القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكونت لها دول في بلاد المغرب، بني مرين بفاس وبني زيان في تلمسان".[١٧] لذلك يمكن إرجاع أصول ظاهرة القصور إلى القبائل الزناتية، خاصةً وأن "المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق بينما المنزل الصنهاجي "القبايلي "يتكون من سكن أرضي فقط".[١٨] كما يعود الفضل في انتشار هذا النمط السكني "في المناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة التي أنشأت أغلب واحات الصحراء كواحات سوف ووادي ريغ وورڤلة وتيدكلت وتوات".[١٩] ويشير أحد الباحثين المتخصصين أن قصور تافيلالت تنتمي إلى الحضارة المتوسطية، فقد "عرف سكانها تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام، فالمنازل ذات الصحون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتحصين والتنظيم البسيط ومتانة بناء الأسوار ووجود النخيل والجمال، كلها معطيات تنتمي إلى حوض بحر الأبيض المتوسط".[٢٠]

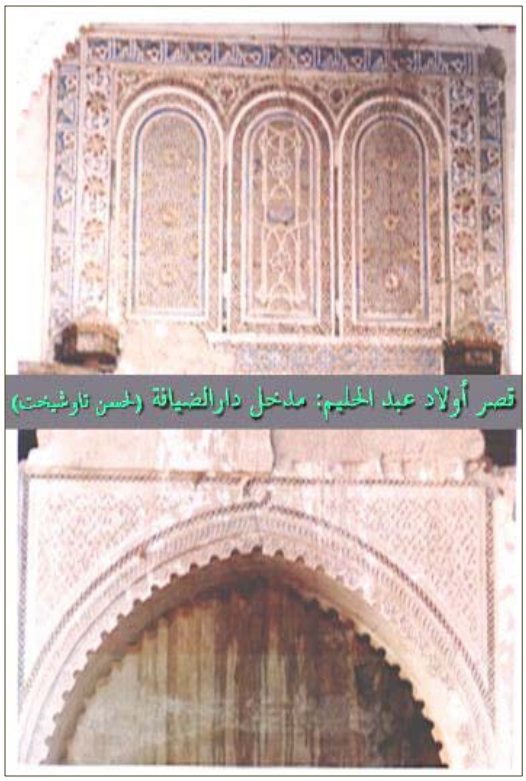
قصر أولاد عبد الحليم: مدخل دار الضيافة (حسن تاوشيخت)

وعلى كل حال؛ فمن المؤكد أن قبائل بني معقل حين بسطت سيطرتها على منطقة سجلماسة في (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، لم يكن المجال بيداء وإنما وجدت بعض القصور قائمة بدون شك. "فقبيلة مكناسة التي أسست مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي تنتمي للجماعة الزناتية، وكانت لها دراية بالهندسة المعمارية للقصور وظفتها في بناء المدينة اعتمادًا على النمط السكني السائد بمجالاتها وقد عرف بناء القصور اتساعًا وتطورًا ملحوظًا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، لأن هؤلاء أنفسهم نقلوا معهم مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة فيما سبق".[٢١]

فلم تكن قبائل الرحل بالجنوب المغربي بدوًا يتنقلون بحثًا عن المراعي فقط، بل لعبوا أيضًا دورًا أساسيًا في نشر ثقافات وعادات الحضارات المتوسطية التي كانوا على اتصال مباشر معها. وأدى ذلك "إلى ظهور التجمعات البشرية الأولى، فتطورت بذلك التشكيلات

المعمارية الدائمة بالواحات الشبه الصحراوية تحت تأثيرات محتملة لهذه المبادلات خلال عهد الزناتيين الذين نظموا وقننوا التجارة الصحراوية وتحكموا أيضًا في ساكنة الفلاحين المستقرين وشبه المستقرين".[٢٢]

كما يمكن أن يكون هذا النمط المعماري قد نقله عرب المعقل أنفسهم من بلادهم الأصلية في اليمن، ذلك أن هندسة القصور بتافيلالت تأثرت في نفس الوقت بمؤثرات أندلسية ومشرقية".[٢٣] ويحاول باحث آخر أن يجد لهذا النمط جذورًا أوربية وإن كان رأيه يتأرجح بين الوجهة المصرية والأصل الروماني- البيزنطي، إذ يقول "إن الهندسة المعمارية للواحات ترجع لتقليد قديم جدا تم اغناؤه في العصور الإسلامية الأولى وهي في كل الأحوال، ذات أصول مصرية... هندسة الواحات تشكلت إذن -على أقصى تقدير -في القرون الإسلامية الأولى، مع بداية العصر الوسيط وقد قلدت في الهندسة التقليدية الأولى، التصاميم والبرامج المعمارية الموروثة عن روما وبيزنطة".[٢٤]

التناقض نفسه يطغى على رأي باحث أوربي آخر، فمرة يرى أن معمار سجلماسة ومنذ (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) عرف "تأثيرات الكوفة وبغداد، هذا التأثير الذي ازداد فيما بعد بفعل العلاقات الثقافية والاقتصادية المتعددة التي ربطت متربول الصحراء الكبرى مع المشرق".[٢٥] وفي المرة الثانية يذكر أن هذا النمط المعماري، "يتشابه مع مثيله الموجود بإقليم سيستان بإيران، ذلك أن الخوارج الصفرية الذين شيدوا سجلماسة يرجع أصلهم إلى بلاد فارس ومنها نقلوا تأثيرات ثقافية وحضارية إلى موطن استقرارهم في منطقة سجلماسة".[٢٦]

وعلى كل حال؛ يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظاهرة القصور في منطقة سجلماسة، ويمكن القول بأنه بعد "تخريب مدينة سجلماسة عرفت واحة تافيلالت تحصينا بواسطة سور طويل بلغ ٨٠ ميلاً (١٢٨ كيلومترات)،[٢٧] أو أن المنطقة كانت "عبارة عن قرى متعددة [قصور] كان بعضها ما يزال قائما عند ظهور زعامة الشرفاء العلويين بالصحراء. لا شك أن الأوصاف التي نعت بها القدماء مدينة سجلماسة، إما أن تكون مدينة كبيرة جدا واندثرت في وقت لم يحدد وإما أن تكون عبارة عن قصور متوالية في منطقة معينة".[٢٨] فمن نماذج القصور التي يعتقد أنها كانت موجودة قبل اندثار مدينة سجلماسة، يذكر أحد الباحثين أن قصر الجبيل الواقع شمال غرب سجلماسة، يعتبر أقدم قصر بهذه المنطقة ويعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي ويقطنه حاليًا عدة عناصر عربية وبعض الأسر من آيت إزدك.[٢٩]

ويشير باحث آخر إلى أن القصر المعروف حاليًا تحت اسم "آبار المخزن" يرجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، رغم أن موقعه المتميز يؤهله لأن يكون أقدم من ذلك"[٣٠] وجاء في كتاب ابن الزيات التادلي أن القصر الذي يدعى برابطة أنبدور يقع خارج أسوار مدينة سجلماسة،[٣١] وأنه شهد إشعاعًا دينيًا خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). ويقع هذا القصر في مشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة، يحده قصر "البطرني في الجنوب الشرقي والساقية المسماة المنصورية شرقًا، ومولاي محمد الشيخ غربًا والجبيل وتاحسنونت شمالاً. وتوجد إلى اليوم بتافيلالت ساقية تحمل اسم الساقية النبدورية تنطلق من قصر أولاد ليمان وتمر محاذية للحدود الشمالية لخراب مدينة سجلماسة لتنتهي بقصيبة الحدب".[٣٢]

ومن غير المستبعد أن العصر المريني شهد "بناء العديد من القصور وخاصةً لما استقل أبناء أبي علي عمر المريني بسجلماسة في النصف الثاني من القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، فانعكس ذلك على تطور فن معمار القصور في هذه المناطق. فقد بنى عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجلماسة ما بين (٧٦٢ - ٧٦٣ هـ/ ١٣٦١-١٣٦٢م) قصبة ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم، وهي قصبة أولاد عبد الحليم".[٣٣] هذه القصبة اشتراها "السلطان سيدي محمد بن عبد الله في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وفي بداية القرن العشرين الميلادي أصبحت مقر سكنى مولاي رشيد الخليفة السلطاني على مناطق تافيلالت".[٣٤]

كما يمكن إرجاع تأسيس قصور مشيخة الغرفة "إلى مرحلة مبكرة من التاريخ الوسيط، غير أن أول إشارة وصلتنا عنها ترجع إلى (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)".[٣٥] وفي مشيخة واد إيفلي توجد كذلك قصور وقصبات يظهر من نمطها المعماري أنها تعود إلى ما قبل ظهور الدولة السعدية. "خربت مدينة سجلماسة قبيل عهد السعديين حتى لم يبق قائمًا منها غير الأسوار وانتقلت أهميتها التاريخية إلى القصور المجاورة وبخاصة قصر الشرفاء الحسنيين المعروف أيام السعديين بالقصبة السجلماسية".[٣٦]

وبالاعتماد على رواية محمد بن الحسن الوزان فإن معظم القصور بتافيلالت برزت مباشرة بعد اندثار مدينة سجلماسة، لما خربها سكانها وهدموا سورها فالتجأوا بالضواحي وبنوا قصورًا خاصة بهم كان عددها في بداية القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)، حوالي ثلاثمائة وخمسين قصرًا بين كبير وصغير. "استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبنائهم، وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد (أبو العباس) ملك فاس، فثار الإقليم، وقتل أهل البلاد الوالي، وهدموا سور المدينة فبقيت خالية حتى يومنا هذا (أي بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم".[٣٧]

من أهم هذه القصور تجدر الإشارة إلى ثلاثة مهمة منها هي: "قصر تانجيوت ويعود تأسيسه إلى فترة خراب مدينة سجلماسة"[٣٨] وهو قصر لم يعد له وجود وبقي فقط اسمه يطلق على مشيخة تقع في الجزء الشمالي للواحة ومن أهم قصورها مزكيدة والقصر الفوقاني. القصر الثاني يسمى المأمون وهو "كبير وحصين وكثير

السكان خصوصًا منهم التجار اليهود والمسلمين".[٣٩] إلا أن هذا القصر خرب سنة ١٨٣٠م وكان موقعه على بعد كيلومتر واحد جنوب-غرب قصر تابوعصامت على الضفة اليسرى لوادي زيز".[٤٠] أما القصر الثالث فيطلق عليه اسم تابوعصامت ويقع في جنوب سجلماسة وهو لا يزال صامدًا، بل ويعتبر من أكبر قصور المنطقة حجمًا وسكانًا.

صفوة القول؛ لقد تحكمت السلطة المركزية في مدينة سجلماسة وجعلت منها عاصمة أهم إقليم من أقاليم الدولة المغربية، فأصبحت مواردها الاقتصادية وخاصةً من تجارة القوافل، وسك العملة، والمعادن، والمنتجات الفلاحية والصنائع، بمثابة المداخيل الرئيسية لخزينة الدولة والتي لا تنضب وتستعمل كقوة مضافة لمواجهة الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية. وهذا ما جعل من المدينة الهدف الأول لكل حركة أو قوة تريد بسط سيطرتها على المغرب عامة وعلى التجارة الصحراوية بالخصوص. وكان "نتيجة ذلك أن فقدت سجلماسة وإقليمها الكثير من أهميتها السياسية والاقتصادية وكانت مركزًا لتمرد الحكام المحليين المدعمين من لدن القبائل المعقلية المحلية".[٤١] هذا فضلاً عما عرفه المغرب ككل، بما فيه منطقة سجلماسة، خلال هذه الفترة من أزمات اقتصادية نتيجة توالي سنوات الجفاف والأوبئة ويشير ابن أبي زرع أنه في سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) مثلاً انتشرت مجاعة عظيمة ووباء كبير حتى خلت البلاد من العباد.[٤٢]

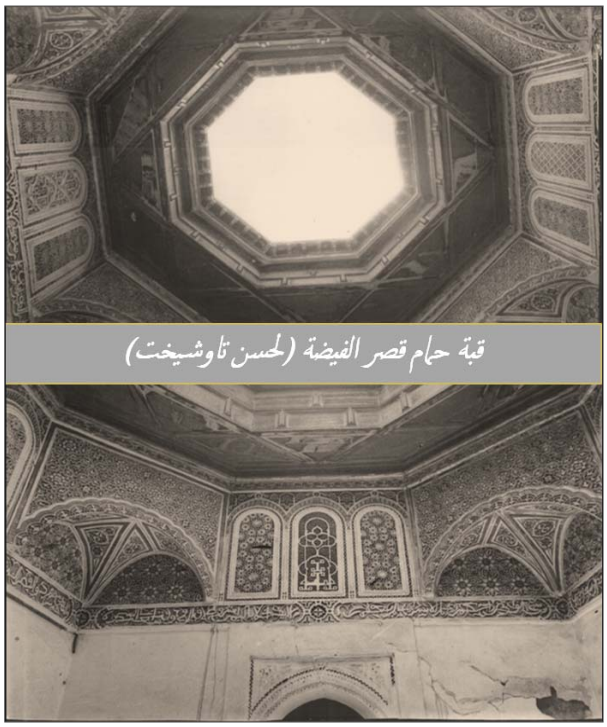

قبة حمام قصر الفيضة (لحسن تاوشيخت)

ثالثا: مواد البناء الأساسية بقصور تافيلالت

١/٣- الطابية والطوبية:

يمكن القول؛ إن المواد التي استخدمت في تشييد القصور الفيلالية سواء المندرسة منها أو الباقية، شبيهة بتلك التي استعملت في بناء مدينة سجلماسة، إذ اعتمدت أساسًا على الطابية والحجارة والآجر والجبس والخشب والخزف....إلى آخره.

تتكون الطابية من تربة صلصالية متماسكة ذات لون أحمر-بني ومختلطة بالحصى والقطع الخزفية وبقايا عظام حيوانية وأجزاء خشبية. هذه المواد محلية وقد تكون أخذت من الركامات الأثرية لمدينة سجلماسة. وتتميز الطابية بالصلابة، إذ يستخدم في بنائها على تراب طيني غني بالرمل والحصى الصغيرة يستخلص من عين المكان، ويبلغ طول الطابية حوالي ثلاث أمتار، وعلوها حوالي (٠،٨٠) مترًا ويتراوح السمك ما بين (٠،٩٠) مترًا ومتر ونصف وبذلك يصل ارتفاع السور المشيد من الطابية إلى (١١ مترًا) وأكثر بالنسبة للأبراج. ويعتمد في تركيبها على اللوح والمركاز وعلى ميزان الخيط لضبط استقامة الجدار. واستعملت الطابية في بناء الجدران الخارجية والداخلية واعتمدت في تشييد "أقدم القصور بتافيلالت، بينما زينت أبراجها وحصونها بزخرفة خاصة من الطوبية المشمسة ذات تنسيق دقيق ووحدة كبيرة".[٤٣]

أما الطوبية، فتعتمد على تراب خال من الرمل والحصى، يضاف إليه التبن الرقيق ويخلط بالماء. ويستعمل في صنعها إطار خشبي "قالب" به فراغين مستطيلين يملئان بالتراب الذي يدك حتى تلتحم أجزاؤه، فيزال القالب وتترك الطوبية على الأرض حتى تجف جيدًا تحت أشعة الشمس. يتكون القالب عادة من حجمين مختلفين، الأول كبير يبلغ في المعدل (٣٠ سم) طولاً و(١٥ سم) عرضًا، و(٨ سم) سمكًا، أما القالب الصغير الحجم فيبلغ طوله (٢٦ سم)، والعرض (١٣ سم)، والسمك (٧ سم). ويسمى صانع الطوبية، "الطواب في اصطلاح مجتمع تافيلالت".[٤٤] وإذا كانت الطابية تكون الجدران الأساسية في بناء القصور؛ فإن الطوبية تصلح لبناء الحيطان والأروقة الداخلية والأقواس والأعمدة والعقود والسلالم والأدراج وشرفات الأبراج. وتستعمل أيضًا في التوسعات والارتفاعات، وفي تزيين واجهات القصور وخاصةً في القسم العلوي للأبراج بنقوش زخرفية هندسية مثل التقويسات والإفريز وهي تعبر عن روح إبداعية بالرغم من بساطة أشكالها. وتستغل الطوبية كذلك كستار فوق الأسوار وكمادة بنائية لاحمة بين مختلف طبقات الحائط المشيد من الطابية.

٢/٣- الجبس والجص:

الأول يوظف في تبليط الواجهات الداخلية للجدران، بينما يستخدم الثاني في النقش والزخرفة. ويتخذ الجص شكل المكان الذي يزينه، فيحيط إطارات الفسيفساء والزليج ويحتل الجزء العلوي للأسوار وتحت السقف. كما يزين الأقواس والأعمدة الحاملة للساكف وعقود الأبواب، والمحاريب... ويتوزع الجص المنقوش على شكل إفريز أو إطار مستقيم، أو محدب أو مقوس.

٣/٣- **الخشب:**

وهو ثلاثة أنواع: خشب الصفصاف، خشب الأرز وخشب النخيل. ويعتبر خشب الأرز الصنف الأكثر شهرة واستعمالا في القصور الفيلالية وخاصةً المخزنية سواء في البناء أوفي الزخرفة. ويظهر عمومًا في الأجزاء العليا، إنه المادة المفضلة في تشييد السقوف والقباب والرتاجات الخارجية والأروقة الداخلية، وفي صنع المنابر والأبواب والمشربيات... كما استخدم أيضًا خشب النخيل والصفصاف ولكن بكيفية أقل. ويصنف الخشب الموظف في البناء إلى عدة أسماء أهمها:

- **المادة:** ويبلغ طولها ما بين ثلاثة وسبعة أمتار، بينما يتخذ سمكها شكلاً مربعًا متساوي الأضلع (٠،٣٠ × ٠،٤٠ متر) أو مختلف الأضلع [ما بين ٠،١٨ × ٠،٣٠ مترًا أو ٠،٢٦ × ٠،٤٠ مترًا].
- **الكَايزة:** هي شكل من أشكال المادة ذات الأضلع المربعة [ما بين مترين ومترين ونصف] ويتراوح سمكها ما بين (٠،١٠) و(٠،١٦ مترًا).
- **الورقة:** وترافق الكَايزة وتلتصق بها من الأسفل، ويتراوح سمكها ما بين (٠،٠١) و(٠،٠٣) مترًا، ويبلغ طولها ما بين متر ونصف ومترين أو مترين ونصف.
- **التشبيكة:** "هي أخشاب صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل كذلك يبلغ سمكها ما بين (٦ و ٨ سم) وطولها ما بين (١٢ و ١٨سم)... تسمى أيضًا "تشبيكة الربط" وهي عبارة عن مواد لاحمة توظف لتشبيك أخشاب الكايزة".[٤٥]
- **الفرد:** وهو عبارة عن خشبة من النخيل يبلغ طولها ما بين مترين ونصف وثلاثة أمتار وعرضها بين (٠،٣٠) و(٠،٥٠) متر وتستعمل في مدخل المنازل والبيوت وأحيانًا في السقف.
- **القنطرة:** وتشبه في طولها الفرد، بينما يتراوح عرضها ما بين (٠،٢٠) و(٠،٣٠) مترو تستخدم في السقف.
- **الكريدة:** "وهي خشبة صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل طولها ما بين ١ و ١،٣٠ م، أما سمكها فمحدود بين ١٥ و٣٠ سم... يتم تصفيفها وإتقانها لتكون بعض الأشكال الهندسية في السقف إما على شكل مربعات أو مستطيلات".[٤٦]
- **الجريد والقصب:** ويوظفان في بناء سقوف بعض البيوت وحظائر الحيوانات والدواجن.
- **الساكف:** وهو ما يقابل العتبة من أعلى الباب، ويشيد إلى جانب السقوف والخرجات من الخشب".[٤٧]

٤/٣- **الخزف:**

وهو أنواع أهمها الزليج والبجماط والقرميد. فأما الأول فيوجد على شكل قطع صغيرة مربعة أو تربيعات أو نجمات، ويستعمل في تزيين الأرضيات والجدران ومداخل الحجرات والمساجد، فيعطيها زخرفة متميزة. وحسب جورج مارسي G. Marçais فإن "الزليج الذي بقي المغرب وفيا له، يحتل مكانة أكثر أهمية في هذه البنايات".[٤٨] نفس الشيء يقال عن البجماط الذي يستعمل خاصة في فرش أرضيات الحمامات والممرات والصحون المفتوحة. أما القرميد الأخضر فيتخذ طابعا وظيفيا وزخرفيا ويستعمل في واجهات الشرفات العليا للأبواب الرئيسية والصحن والرياض.

٥/٣- **الحجارة:**

من أهمها الجرانيت السوداء ويتم استخدامها خاصةً في بناء أساس الأسوار على ارتفاع حوالي متر واحد اتقاء للرطوبة والفيضانات. تبنى الأسس بالحجارة الكبيرة يضاف إليها التراب والجبس لكي تلتحم وتملأ الفراغات بالحصى والحجارة الصغيرة. ويعتمد في تشييد هذه الأسس على طبيعة التربة؛ فإن كانت صلبة تشيد مباشرة فوق الأرض، بينما إذا كانت التربة هشة؛ فإن ذلك يستدعي حفر الأسس لعمق وعرض لا يتجاوزان متر واحد.

رابعًا: التصميم المعماري

إن بناء القصر لا يعتمد بتاتًا على تصميم تطبيقي ولا على تعليمات مهندس معماري، وإنما فقط على خبرة المعلم البَناء الذي يحدد شكل القصر وحجمه ووضعه اعتمادًا على الموقع والموضع وعدد السكان المحتملين ومواد البناء المتوفرة. ويتشكل القصر عادة من بنايات متراصة يحيط بها سور عريض ومرتفع، تتخلله عدة

أبراج للحراسة. "إن كلمة القصر التي تقابلها كلمة الدوار والمدشر في باقي مناطق المغرب الأقصى، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة وكذلك كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة والقصر"،[٤٩] ويطلق عليها بالأمازيغية تغرمت وإغرم. إلا أن القصبة "تختلف بحوض وادي درعة عن تلك الموجودة بسجلماسة؛ لأنها في الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين (١.٤٠) و(١.٨٠) مترًا، أما السور الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. بينما القصور بسجلماسة لا تتضمن إلا سورًا واحدًا وغالبًا ما تلتصق به جدران المنازل".[٥٠] ويذهب أحد الباحثين إلى أن "الهندسة المعمارية للقصور بسجلماسة أقدم من مثيلاتها بدرعة".[٥١]

ومهما يكن الأمر، "فالقصور قرى محصنة في السهول الصحراوية أو ما قبل الصحراوية تتسم ببنية منتظمة على وثيرة واحدة تندرج ضمن حصن له أبواب ضخمة واستحكامات ركنية أي قائمة في زوايا القصور".[٥٢] وربما كانت "الضرورات الأمنية هي التي أجبرت على بناء الأسوار حول جنبات القصور وهي أسوار غالبًا ما تشيد فوق أساس من الحجارة درءًا لفيضانات الأنهار. والقصور بسجلماسة تتخذ في غالبتها شكلاً مستطيلاً تتخللها أربعة أبراج في الأركان وتكون جدرانها سميكة يتراوح عرضها بين متر واحد ومترين وعلوها ما بين (٥ و ١٠) أمتار ولا يوجد بالقصر إلا مدخل واحد غالبًا ما يكون مزخرفًا".[٥٣]

وتتميز القصور بتافيلالت في معظمها بتنظيم داخلي جد منسق، ذلك أن القصر غالبًا ما يتخذ شكلاً مستطيلاً يحيط به سور عال تتخلله أبراج في الأركان وما بينها وعلى جانبي المدخل الوحيد الذي ينفتح مباشرة في السور وسط أحد الواجهات. ويكون المدخل عبارة عن قوس يزين إطاره بنقوش جميلة، وهو يؤدي إلى رواق مغطى يفضي بدوره إلى ساحة داخلية. وقد يكون السور الخارجي للقصر منفردًا أو مزدوجًا، أما الساحة الداخلية فتتوزع عنها مرافق القصر من المسجد، والزقاق الرئيسي الذي تتفرع عنه بشكل منظم الأزقة الثانوية والدروب والدور. و"القصر بزقاقه الرئيسي وأزقته الثانوية يشبه دروب المدن الإسلامية، مما يؤكد أنه ليس حسب شكله تجمعًا سكنيًا قرويًا. كما أن اتجاه هذه القصور لم يكن اعتباطيًا: فالزقاق الكبير يتجه غالبًا نحو قبلة المسجد".[٥٤]

ويضم القصر عدة منازل متراصة ومنتظمة حول أزقة ضيقة مغطاة. وتلعب الأزقة عدة أدوار منها ما هو طبيعي مثل التهوية ومنع تسرب الرياح المحملة بالغبار والرمل، ومنها ما هو اجتماعي يتجلى في ضمان أواصر التآزر والتكافل ومنها ما هو اقتصادي حيث تستغل الأزقة من طرف النساء في إنجاز بعض الأعمال اليدوية. وبذلك يظهر القصر على شكل "خلية سكنية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش وأيضًا بعض الترابطات الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة ...السكن التقليدي المنغلق، إذ أنه يتوفر على مدخل رئيسي يعرف باسم فم القصر وفي بعض القصور نجد مدخلاً أو بابًا ثانويًا يعرف باسم الخراجية، كما أن القصر محاط بأسوار عالية وبأبراج معدة للعملية الأمنية وللحراسة المستمرة".[٥٥]

وتتشكل الترابطات السياسية والاجتماعية داخل القصر وفق عدة اتفاقيات تنظيمية عرفية يتم بموجبها ضبط سير الحياة العامة واليومية داخل القصر، والتي حاولت الكشف عنها وثيقة محلية تدعى مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء لمؤلفها مولاي الزكي بن هاشم العلوي. "هذه الوثيقة تتعلق بالمسألة العمرانية بمنطقة مدغرة وما إليها .وتبين كيف كان يتم بناء القصر وتوزيع النطاقات والحومات على فئاته وكانت تخضع هذه المسألة للوضعية المادية والمكانة الاجتماعية لكل فئة. وتبين الوثيقة المرافق التي يشارك في بنائها وبشكل لزومي كل فئات القصر، كبناء الأسوار الخارجية والأبراج والأزقة والمسجد وغيرها من المرافق العامة، وتكشف كذلك عن جملة من الشروط التي يقرها مجتمع القصر ويفرضها بصرامة على كل السكان".[٥٦]

والقصر الفيلالي يتكون من عدة منازل تتألف بدورها من طابقين وأحيانًا من ثلاثة ويفضي مدخل القصر إلى "ساحة تسمى "السكيفة" أي "السقيفة"، وبها الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. ومن السكيفة يتم المرور إلى ساحة مغلقة تصل إليها أشعة الشمس عبر فتحة في السقف، وتضم حجرتين واحدة للمواشي وأخرى للأدوات الفلاحية. أما الطابق العلوي فيخصص غالبا لسكن الأسرة وتتوزع على جنباته الغرف، وعلى إحدى زواياه الأربعة يبنى الدرج الثاني الذي يؤدي إلى طابق يضم غرفة أو غرفتين ويسمى هذا الطابق بـ "العلالي".[٥٧]

وتمثل القصور العلوية أو المخزنية نموذجًا رائعًا للمعمار الترابي بمنطقة تافيلالت، هذه القصور تتميز بتصميم عمراني شبه موحد يتوفر على مختلف المكونات المعمارية التي تعطيه شكل وحدة سكنية متكاملة، يقطن بداخل هذه الوحدة عادة عائلة واحدة من

الشرفاء فضلاً عن الخدم وأحيانًا بعض الأحلاف القبلية، وتضم بالإضافة إلى الدور السكنية، على المسجد والحمام والرياض والساحة العمومية...إلى آخره. وتعبر هذه القصور المحصنة عن نمط من المعمار الترابي يعكس ربما الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في مرحلة معينة من تاريخ المنطقة. ويتجلى ذلك من خلال معاينة مكونات تصميم القصور العلوية والتي يمكن تحديدها من الخارج إلى الداخل كما يلي:

- **السور الخارجي**: يحيط بكل القصر ويتميز بعلوه الذي يتجاوز ١١ مترًا، تتخلله عدة أبراج مربعة يتراوح عددها ما بين (٩ و١٣). وتكون هذه الأبراج غالبًا مزينة بنقوش هندسية محززة من الطوبية؛
- **الساحة الخارجية أو المشور**: وهي مخصصة لمراسيم الاحتفال والاستقبال وغالبًا ما تشيد في أحد جوانبها مرابض الخيول؛
- **المدخل الرئيس**: وهو عبارة عن باب كبير ذي قوس منكسر ويحيط به برجان مربعان يمينًا ويسارًا فضلاً عن بوابات صغيرة مغلقة. ينفتح هذا المدخل على رواق مغطى يسمى بالدكانة تخصص للحراسة وتشيد فوقها مسرية يسكنها الحارس؛
- **المسجد**: يتكون من صحن مكشوف ومن خمس بلاطات ومن ثلاثة أساكب ومن المحراب والمنبر. ويتميز المسجد بثرائه الزخرفي من حيث النقوش الجصية والأشكال المصبوغة والخشب المنحوت؛
- **زقاق بوطويل**: وهو عبارة عن زقاق طويل يحيط بالسور الخارجي من الداخل وغالبًا ما توجد بجوانبه دور الخدم، أو يمر في الوسط فيقسم القصر إلى شطرين؛
- **الساحة الداخلية**: وتستعمل أيضًا للاستقبالات والمراسيم المختلفة وتؤدي مباشرة إلى الدار الكبيرة؛
- **الدار الكبيرة**: وهي مقر سكنى العائلة العلوية وتتوفر على مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية من الأروقة المغطاة، والصحن المفتوح، والرياض، والحمام، والحريم، وقاعات الضيافة، والمخازن، والبئر، والمطبخ...وغيرها؛
- **العرصات والجنانات**: وتوجد خارج السور الرئيسي وهي مخصصة لتزويد القصر بما يحتاجه من المواد الغذائية.

وتمكن دراسة الأشكال الزخرفية بهذه القصور أيضًا من فهم الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها، ومن تعميق المعرفة النسبية بما كانت تزخر به مدينة سجلماسة من نقوش فنية بديعة لم تسعف المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية على تقديم تفاصيل دقيقة عنها. وتتخذ الزخارف بالقصور أصنافًا متنوعة حسب طبيعتها وحسب نوعية المواد التي تتشكل منها وحسب توظيفها: فمن حيث المواد المستعملة تنقسم هذه الأشكال إلى ثلاثة هي: (الزخرفة الطينية، والزخرفة الجصية والزخرفة الخشبية)؛ من حيث تموضعها تحتل دائمًا الأماكن البارزة وتتخذ شكل إفريز، أو لوحة أو إطار؛ من حيث طبيعتها تصنف إلى عناصر زخرفية مصبوغة، وإلى عناصر زخرفية منقوشة وإلى عناصر مركبة أو مزدوجة. كما يمكن التمييز بين أشكال هندسية (معينات، وتشبيكات، ومربعات، ونجوم). وأشكال نباتية (أغصان، وأزهار، ونخلات...) وأشكال مكتوبة (الملك لله/ العز لله / العافية الباقية / آيات قرآنية / أبيات شعرية منتقاة من قصيدة البردة للبوصيري...).

من حيث التنظيم الداخلي للقصر، يمكن القول إن لشكل المعمار بتافيلالت يمثل شكلاً من أشكال التضامن الجماعي والاجتماعي، ذلك أن لكل قاطن بداخله سواء كان فردًا أو عائلة مكانته وحقه في المشاركة الفعلية في تدبير شؤون الحياة اليومية للقصر والتي تضبطها قواعد التعاون والتعاضد بمختلف تجلياتها. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول "الجمامن". والأكثر من هذا غالبًا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. كما تتضح صور التآزر في مساهمة كل أسرة حسب طاقتها، في توزيع الزكاة والأعشار والصدقات وفي أداء الكلف الاجتماعية.

في ميدان تدبير المصالح العامة، يتوفر كل قصر على جماعة تسيره وتنظمه برئاسة الشيخ الذي يتكلف بتطبيق القوانين والقرارات الصادرة عن الجماعة، وينتخب لمدة محددة ويمكن تجديد انتخابه. وتكون الجماعة مؤلفة من ممثلين عن كل سكان القصر حسب انتمائهم العرقي ووضعيتهم الاجتماعية. ويذكر محمد بن الحسن الوزان نموذجا للتنظيم الداخلي بمجتمع قصور تافيلالت خلال القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي فيقول: "ويدير كل قصر من القصور أمير خاص هو رئيس فريقه... وتضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب... ويوجد به بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلونها بالذهب والعبيد".[٥٨]

خلاصة

من خلال دراسة مختلف التنظيمات الاجتماعية في المجتمع الفيلالي وفق الاتفاقيات والعقود التنظيمية التي تعتبر بمثابة الشروط والضوابط العرفية الخاصة بتنظيم الحياة العامة واليومية للعناصر الإثنية القاطنة داخل القصر الواحد،[٥٩] يمكن القول؛ إن القصر انبثق عن تشتت لمعمار سجلماسي الحضري وهو يعبر عن استجابة لحاجيات متنوعة فرضتها ظروف قاهرة تتمثل في شح الموارد والتنافس عليها، فأصبح بالتالي وحدة معمارية متعددة الوظائف وتداخل في تشكيل عمارته عدة عوامل أهمها:

- **الماء**: ويتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية، ومشكل قلة الماء وضرورة التغلب على ذلك بالتنظيم والتوزيع الدقيقين، ويعتبر من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة التي اعتمدت كل الوسائل اللازمة في ذلك مثل الناعورات والآبار والخطارات. ذلك "أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية... من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية".[٦٠]
- **القبيلة**: التي تسيرها الجماعة برئاسة الشيخ، وكانت من أسباب ظهور الأحلاف. وكانت جماعة القصر "تفرض على كل السكان بمختلف فئاتهم المشاركة في بناء التحصينات كالأبراج والأسوار والمؤسسات الدينية والإنتاجية العامة (المسجد . الفندق المعصرة...). وسعيًا وراء تحقيق الأمن داخل القصر، فقد كانت المشيخة أو الجماعة تكلف بالتناوب ساكنة القصر حراسة بابه بالليل والنهار لاسيما وقت الفتنة".[٦١] ففي تافيلالت يعتبر الانتماء القبلي هو العامل الرئيس في استغلال المجال الفلاحي، فهو المنظم لعملية توزيع الماء بين ذوي الحقوق وهو المؤطر للصراعات المحلية، بل وهو العامل الذي غالبًا ما يحدد المورفولوجية المعمارية للقصر.
- **الزاوية**: وكان لها دور روحي واجتماعي، ويتجلى خاصةً في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة. لذلك حظيت باحترام كبير من لدن مختلف الفئات الاجتماعية بتافيلالت وكان لها مجالها المقدس سواء في الميدان الفلاحي، إذ كانت تتوفر على ملكيات هامة من الحقول الزراعية ومن الأشجار ومن الماشية. في الجانب العمراني كان نطاقها المعماري بارزًا سواء كان منعزلاً أو مدمجًا داخل أحد القصور فيسمى باسم الزاوية.
- **التنوع والتكامل الاقتصاديين**: يتميز القصر في تافيلالت بتواجده وسط الحقول الزراعية التي يقوم بخدمتها سكان القصر أنفسهم إلى جانب تعاطي بعضهم للحرف والتجارة.

وتختلف أهمية القصور حسب انتمائها لإحدى المشيخات المكونة للمنطقة وأهمها مشيخة واد إيفلي التي يغلب عليها النشاط التجاري والوظيفة الإدارية، بينما تخصصت مشيخة السفالات في التجارة والصنائع وخصوصا النجارة. وارتبطت مشيختي السيفة وبني امحمد بالزراعة بشكل خاص. وإذا عرفت بعض القصور بنشاطها التجاري مثل تابوعصامت وأبو عام؛ فإن بعضها الآخر تخصص في الصنائع مثل مولاي عبد الله الدقاق في الخزف ومنوكّة في الدباغة.

الهَوامِشُ:

(١) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): **وصف إفريقيا**، تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان ١٩٨٢. الجزء 2 (ص ١٢١).

(2) Terrasse (Henri): «Notes sur les ruines de Sijilmassa», **IIème Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes, Tlemcen 14-17 avril 1936**. Alger, Publication de la Société Historique Algérienne 1936. VIII planches hors texte (p 362).

(٣) ويقصد ربما عين تمدرين الواقعة قرب قصر البروج بسهب أيردي شمال مدينة أرفود وعلى بعد حوالي ٣٠ كلم شمال سجلماسة.

(٤) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجزء الثالث ١٩٥٤ (ص ١٢٠).

(٥) المدغري (أحمد ابن عبد العزيز ابن الحسن): **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، ١٩٦٦ (ص ٩٢ الهامش رقم ١).

(٦) ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني): **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن**، الجزائر ١٩٨١.

(٧) ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سبعة أجزاء ١٩٨١. الجزء ١ (ص ١٨٧- ١٨٨).

(٨) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجزء الرابع ١٩٥٦ (ص ٨٣).

(٩) نفسه: (ص ٨٥)

(10) Jacques-Meunié (D) : **Architectures et Habitats du Dadès, Maroc Présaharien**. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 296).

(١١) حافظي علوي (حسن): **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية) 1997. (ص ٤١٢- ٤١٣).

(12) Jacques-Meunié (Djinn) : **Le Maroc Saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques**. Paris, édition C. Klincksieck 1982. Université Paris Sorbonne, Thèse Doctorat d'Etat en Histoire 16 juin 1975. Deux volumes, cartes et figures dans le texte (p 284).

(١٣) الوزان (محمد بن الحسن): مصدر سابق، الجزء ٢ (ص ١٢٥- ١٢٦).

(١٤) حافظي علوي (حسن): "تانيجوت"، **معلمة المغرب**، المجلد السابع (ص ٢٢٣٠- ٢٢٣١).

(١٥) ابن خلدون (عبد الرحمن): **المقدمة**، بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى ١٩٧٨ (ص ٣٣).

(16) Fagnan Eugène: **Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire**. Alger 1924 (p 28).

(١٧) ابن خلدون (عبد الرحمن): **العبر**، مصدر سابق. الجزء ٧ (ص ٧٧).

(18) Gautier (E.F): **le passé de l'Afrique du Nord**, Paris, édition Payot 1964 (pp 228 - 229).

(19) Lewiki (Tadensz) : «Sur le titre libyco - berbère»,: **Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem** i sudanem. Varsovie, édition Scientifique de Pologne, 1976 ; illustrations (Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales) 93 (p 44).

(20) Hensens (J): «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar: problème de rénovation », **Bulletin Economique et Social du Maroc.** N° 114 ; Juillet – Septembre 1969 (p 83).

(٢١) حافظي علوي (حسن): **سجلماسة وإقليمها**. مرجع سابق، (ص ١١٦- ١١٧).

(22) Saidi (Idriss) : « étude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic », **Oasis Tafilalet**, n° 1 ; 1999 (p 11).

(٢٣) محمود إسماعيل (عبد الرزاق): **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٥ (ص ٣٠٠).

(24) Terrasse (Henri): **Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis : les grandes architectures du sud marocain**. Paris, édition Horizons de France, sans date. Illustrations et figures dans le texte (pp. 73 – 74).

(25) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p. 231).

(26) Jacques-Meunié (D): «Sur l'architecture du Tafilalet et Sijilmassa (Maroc Saharien) », **Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres avril - décembre 1962**. Paris, Librairie C. Klincksieck, décembre 1963. 5 figures dans le texte (pp 100 - 101).

(27) Jacques-Meunié (Djinn): **Le Maroc Saharien.** op-cit (p 297).

(٢٨) حجي (محمد): "المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، ١٩٨٨ (ص ٢٩).

(29) Faure (Roger): **le Tafilalet, étude d'un secteur traditionel d'irrigation**. Paris 1969 (p 167).

(30) Jacques-Meunié (Djinn) et Meunié (Jacques) : « Abbar, cité royale du Tafilalet », **Hespéris**. Tome : XLVI, 1° et 2° trimestre 1959. 12 figures ; VIII planches hors texte (p 63).

(٣١) ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة محمد الخامس "نصوص ووثائق ١" ١٩٨٤ (ص ٤١٢).

(٣٢) حافظي علوي (حسن): مرجع سابق (ص ١٢١).

(٣٣) نفسه، نفس المرجع (ص ١٢٢).

(34) Jacques-Meunié (D) : **le Maroc saharien**, op-cit (p 295).

(٣٥) حافظي علوي (حسن): المرجع السابق (ص ١٢٥).

(٣٦) حجي (محمد): **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**. المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٧٨. الجزء ٢ (ص ٥١٩).

(٣٧) الوزان (محمد بن الحسن)، المصدر السابق، الجزء ٢ (ص ١٢١).

(٣٨) نفسه: (ص ١٢٥).

(٣٩) نفسه: (ص ١٢٦).

(٤٠) نفسه: (ص: ١٢٦، الهامش ٢٢).

(41) Mezzine (Larbi): **Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles**. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987 (p 32).

(٤٢) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي الفاسي): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط، دار المنصور ١٩٧٣ (ص ٢٧٦).

(43) Jacques-Meunié (D): **Architectures et Habitats du Dadès, Maroc présaharien**. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 92).

(٤٤) لمراني علوي (محمد): "المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة"، **الندوة الدولية حول المعمار المبني بالتراب**. (ص ١٠٧- ١٠٨).

(٤٥) لمراني علوي (محمد): المرجع السابق (ص ١١١).

(٤٦) نفسه (ص ١١٣).

(47) Terrasse (Henri): op-cit (p 51).

(48) Marçais (Georges) : **L'architecture musulmane d'Occident: Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile**. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1954. 108 planches et 286 figures (p 415).

(٤٩) حافظي علوي (حسن): المرجع السابق (ص ١١٤).

(50) Touri (Abdelaziz): « Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien », **Actes du IV° Colloque Euro-africain 1985**. (p 33).

(51) Jacques-Meunié (D) : « Abbar », op-cit (p 51).

(٥٢) بنعبد الله (عبد العزيز): "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، **دعوة الحق**. عدد خاص، مارس ١٩٨٨ (ص ١٠٨- ١١٣).

(53) Faure (Roger): **Le Tafilalet, étude d'un secteur traditionnel d'irrigation**. Paris 1969. (p 140).

(54) Terrasse (Henri): op-cit (p 56).

(٥٥) لمراني علوي (محمد): مرجع سابق (ص ١٠١).

(٥٦) عبد اللوي علوي (أحمد): **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**، المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان ١٩٩٦. الجزء ١ (ص ٢٧- ٢٨).

(٥٧) حافظي علوي (حسن): مرجع سابق (ص ١١٧).

(٥٨) الوزان (محمد بن الحسن): المصدر السابق، الجزء ٢ (ص ١٢٦).

(59) Mezzine (larbi): **Contribution à l'histoire du Tafilalet : aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits**. Paris I, Thèse de 3° cycle en Histoire, 3 volumes, tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte (X + 736 + 69 pages dactylographiées).

(٦٠) عبد اللوي علوي (أحمد): المرجع السابق، الجزء ١ (ص ١٠٢).

(٦١) نفسه: (ص ١٨٦).